ثمرة الصَّبْر على البلاء

بيّن الله تعالىٰ ما أعدَّ لعباده الصابرين علىٰ البلاء من الأجر والثواب فقال : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥ـ١٥٧]. فالمؤمن الذي يلقىٰ أحداث الحياة ومصائبها بالصبر ويواجهها بالرضا والتسليم عن يقين وإيمانٍ بأنَّ ما وقع إنَّما هو بقضاء الله وقدره ، وبأنَّ الخلائق كلّها التي تملأ الحياة على اختلاف أصنافها وتباين مراتبها وكلّ ما في هذا الوجود من كنوز ونِعَم وخيراتٍ ومتاع وأشياء ومكوّنات ملك لله وحده لا شريك له ، وأنَّ الله تعالىٰ يفعل بملكه ما يشاء ، وأنَّ المرجع والمآب إليه سبحانه القائل في كتابه : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨١] .

إنَّ العبد الذي يؤمن بذلك كلّه لساناً وقلباً ينتفي عنه الجزع من المصاب مهما كان فادحاً ، فلا يأسىٰ على فائت ، ولا يحزن علىٰ مفقود ، ولا يسخط من القضاء ، لأنَّه يعيش حقيقةً إيمانيّة كُبْرى تقول :

وما المال والأهلون إلاّ ودائع ولا بدَّ يوماً أن تردَّ الودائع

وتقول :

أنا من أنا أنا في الوجود وديعة وغداً سأرحل عابراً في لحظةِ

فأورثت هذه الحقيقة الإيمانيّة قلب المؤمن طمأنينة ورضاً وتسليماً ، واستحقَّ لذلك أن ينعُم بعطاء الله للصابرين وببشراه للمحتسبين حيث قال : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ وبماذا يُبشَّرون؟ يأتي في قوله سبحانه : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٧] . إنَّهم يُبشَّرون بثلاثة عطاءات جليلة سابغة :

أولها ـ ﴿ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة : ١٥٧] : أيْ مغفرة من الله تعالىٰ تداركهم بها في ظلِّ رعايته لأحوالهم وتربيته لهم ، فهم في كنف عنايته وعين حراسته ، يبادرهم بالمغفرة التي يخرجون بها من ظلمات الغَفَلات ، ويصبحون في رحاب أنوار الطاعة والقرب منه سبحانه وتعالىٰ الذي قال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ ﴾ [الأحزاب : ٤٣] .

فإذا كانت هذه الابتلاءاتُ ظلماتٍ علىٰ من لم يصبر عليها فساقته إلى الاعتراض على الله ، فإنَّها نورٌ للصابر فيها ، حيث

يترتَّب علىٰ الصبر على البلاء والرضا بالقضاء مغفرة ذنوب الصابرين وتكفير خطاياهم ، ويوكّده قوله عليه الصلاة والسلام : « ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا مخمصة حتىٰ الشوكة يُشاكها إلاّ كفَّر الله بها من خطاياه »[1] .

وقوله : « ما يزال البلاءُ بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وماله وولده حتىٰ يلقى الله وما عليه خطيئة »[2] .

ثانيها ـ ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة : ١٥٧] : أيْ نعمة من الله تعالىٰ يمُنُّ بها عليهم ، يُذهِب بها حزنَ قلوبهم ، ويُفرِح بأنوارها نفوسهم ، ويسعد بمعانيها أعماقهم في دنياهم وفي آخرتهم ، وإذا كانت النِّعمة تُورث القلب سروراً فالطمأنينة بالله من أجلِّ النِّعم وأبلغها أثراً في تحقيق السُّرور وتمكينه من سويداء القلب . عندها لا يعرف المؤمن مع المُصاب مهما كان أليماً إلاّ الفرحَ ، فكلَّما نزلت به المصائب ازداد سروراً وابتهاجاً بالأنَّة عنوان التصفِّي من الذنب وشِعار القُرْب من الربِّ جلَّ جلاله ، وهذا ما دعا الفضيل بن عياض عندما نُعي إليه ولده إلى أن يضحك ، وعندما سُئل عن سبب ضحكه قال : أَمْرٌ أحبَّه الله تعالىٰ فأحببته .

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

والنِّعمة التي يرزقها الله تعالىٰ عبده الصابر علىٰ البلاء حسيَّةٌ ومعنويَّةٌ ، فأمَّا المعنويَّةُ فهي الطمأنينة ، وأمَّا الحسيَّةُ ففي الدنيا أن يعوِّض له ما تلف من ماله أو ولده أو جسمه مضاعفاً كما حدث لأبي طلحة زوج أُمِّ سُلَيْم ، فكان من ثمرة صبرهما علىٰ موت ولدهما أن رزقهما الله تعالىٰ في الدنيا بعده سبعة أو تسعةً من الولد كلهم قد حفظ القرآن . وفي الآخرة أن يتمتَّع بالحور العين والولدان المخلَّدين والقُطوف الدانية والشراب الطهور وسائر ألوان النعيم في جنَّة الله ربِّ العالمين .

وفي هذين العطاءين يتحقَّق دفع المضارِّ وجلب المسارِّ ، فالله تعالىٰ يدفع عن الصابر على بلائه ضَرَرَ ذَنْبِهِ بالمغفرة ، ويرزقه سرورَ قلبه بالنِّعمة .

ثالثها ـ ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٧] : هذه شهادة لهم من الله تعالىٰ بالهداية ، وهي صلاح بواطنهم بالمعرفة واستقامة جوارحهم بالطاعة وبراءتهم من الغفلة والضلال . ومن شهد الله له بالهداية لن يضلَّ أبداً ، ولقد عبَّر الله تعالىٰ عن ثبوت الهداية للصابرين بالجملة الاسميَّة ، فجاءت صورتها مفيدة حَصْرَ الهداية فيهم وثبوتها لهم . وهذا من مزيد فضله تعالىٰ عليهم ورعايته لهم .